



دراسة تحليلية مقارنة للعناصر الزخرفية بمدخل العمائر التاريخية: طرابلس، تونس، ومالطا كأمثلة

مريم خليفة هنيدي

المعهد العالي لتقنيات الفنون طرابلس - ليبيا

maryam.hunaidi@email.com

A Comparative Analytical Study of Decorative Elements at the Entrances of Historic Buildings:

Tripoli, Tunis, and Malta as Case Studies

Maryam Khalifa Hunaidi

Higher Institute of Art Techniques, Tripoli – Libya

تاريخ الاستلام: 2025/11/2 تاريخ المراجعة: 2025/11/12 تاريخ القبول: 2025/11/28 تاريخ النشر: 2025/12/7

الملخص

يقدم هذا البحث دراسة تحليلية مقارنة للمفردات والوحدات الزخرفية المستخدمة في تزيين مداخل العمائر التاريخية في حوض البحر الأبيض المتوسط، متخذاً من مدينتي طرابلس وتونس العتيقة وجزيرة مالطا مجالاً تطبيقياً وحيزاً مكانياً للمقارنة. تسعى الدراسة إلى رصد أوجه التشابه الدقيقة ومكامن الاختلاف الجوهرية، وتتبع مسارات التأثير والتأثر المتبادل بين هذه الحواضر التي تشاركت ذات المجال الجغرافي خلال العهد العثماني الأول والفترة الزمنية المعاصرة لها (1551-1711م). اعتمد البحث بشكل رئيسي على المنهج الوصفي التحليلي المقارن كأداة لاستنتاج الخصائص الفنية للمباني الدينية والمدنية. وخلصت الدراسة إلى وجود قواسم فنية حتمية مشتركة تتمثل في سيادة عنصر "الوريدة" الزخرفية، والأشرطة النباتية الملتوية، واستخدام العقود المتنوعة. وبالتوازي مع ذلك، أثبت البحث احتفاظ كل منطقة بخصوصية طابعها المحلي الذي ميز هويتها؛ حيث مالت طرابلس وتونس إلى التجريد الزخرفي والنحت الغائر انسجماً مع الفن الإسلامي، بينما طغى أسلوب الباروك والنحت المجسم الكثيف في عمارة مالطا الكاثوليكية.

Abstract

This research presents a comparative analytical study of the decorative vocabularies used in the portals of historical buildings in the Mediterranean basin, taking the cities of Tripoli, Tunis, and the island of Malta as an applied field. The study seeks to observe the subtle similarities and fundamental differences, and trace the paths of mutual influence between these cities during the first Ottoman period and its contemporary era (1551-1711 AD). The research relied primarily on the descriptive, analytical, and comparative approach as a tool to interrogate the artistic characteristics of religious and civil buildings. The study concluded that there are inevitable common artistic denominators represented in the prevalence of the "rosette" motif, intertwined botanical bands, and various arches. Simultaneously, the research proved that each region retained the particularity of its local character; Tripoli and Tunis leaned towards

decorative abstraction and intaglio carving in harmony with Islamic art, while the Baroque style and intense high-relief sculpture dominated the Catholic architecture of Malta.

المبحث الأول: الإطار العام للبحث ومنهجيته

1. المقدمة: شكل حوض البحر الأبيض المتوسط عبر العصور بيئة حيوية لتبادل المعارف، وانتقال السلع، وتلاقح الفنون، مما أدى بالضرورة إلى ظهور ملامح معمارية وزخرفية متقاربة في حواضره الساحلية الكبرى. وفي هذا السياق، تعتبر "مداخل العماير" (Portals)، بشقيها الديني والمدني، من أهم العناصر المعمارية التي خضعت للاهتمام البصري البالغ والتزيين الفني، حيث تعكس بوضوح التأثيرات الثقافية والسياسية المتعاقبة على أي مدينة، وتمثل العتبة الأولى التي تقصح عن الفلسفة الجمالية للمبنى.

تأتي هذه الدراسة لتعقد مقارنة فنية ومعمارية متعمقة ومجردة بين زخارف مداخل مدينة طرابلس التي تبلورت في العهد العثماني الأول، ونظيراتها في مدينة تونس العتيقة، وصولاً إلى جزيرة مالطا وما تحمله من إرث أوروبي ونهضوي فرضه تواجد فرسان القديس يوحنا هناك. يهدف هذا التشريح الفني المقارن إلى استجلاء الجذور الأولى لهذه الزخارف، وتحليل العوامل البشرية والاقتصادية التي أدت إلى تشابهها أو اختلافها، مثل حركة التجارة البحرية، وهجرة الأندلسيين، والتفاعلات السياسية والعسكرية في تلك الحقبة.

2. مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتركز إشكالية البحث في دراسة ظاهرة انتقال وانعكاس الأساليب الزخرفية بين ضفتي البحر المتوسط، وتحديداً من خلال طرح التساؤلات الآتية:

1. هل يوجد تشابه في الأساليب الزخرفية النحتية المستخدمة في زخرفة المداخل في العماير الإسلامية بمدينة طرابلس الغرب مع مثيلاتها في تونس ومالطا؟
2. ما هي أوجه الاختلاف الجوهرية بين هذه الأساليب الفنية؟
3. إلى أي مدى تأثرت العمارة المحلية في طرابلس بالأساليب الوافدة، وكيف تقاطعت لغة التجريد الإسلامي مع التجسيد الباروكي في مالطا؟

3. أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الغايات العلمية التالية:

1. إظهار التداخل والتشابه في المعمار الزخرفي، وخاصة النحتي، في المدن الثلاث (طرابلس، تونس، مالطا).
2. تحديد مسارات التأثير المتبادل الناتجة عن الهجرات (كالأندلسيين) والانتقال الحرفي.
3. إظهار قدرة الإنسان في حوض المتوسط على الإبداع والابتكار ومساهمته الفاعلة في مسيرة التراث الإنساني المشترك رغم الاختلافات العقائدية.

4. منهجية البحث: لتحقيق أهداف الدراسة والمقارنة الدقيقة، اعتمدت الباحثة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي المقارن. يبدأ هذا المنهج بتتبع الأحداث التاريخية التي بررت هذا الانتقال الفني، يليه وصف تفصيلي للنماذج المعمارية والزخرفية الميدانية (المداخل، التيجان، الأقواس)، ثم إجراء تحليل مقارن للوقوف على الخصائص المشتركة والفروق الفردية بين نماذج الدراسة في المواقع الثلاثة.

المبحث الثاني: الخلفية التاريخية والتأثيرات الحضارية المتبادلة في حوض المتوسط

إن التشابه الزخرفي والمعماري بين طرابلس وتونس ومالطا ليس وليد الصدفة المجردة، بل هو نتاج مباشر لتفاعلات تاريخية وديموغرافية معقدة شهدها القرن السادس عشر والسابع عشر.

1. **هجرة الأندلسيين والتأثير في طرابلس وتونس:** في أعقاب سقوط الأندلس وما تلاه من تهجير قسري، استقبلت مدن شمال أفريقيا، وعلى رأسها تونس وطرابلس، موجات متتالية من المهاجرين الأندلسيين. لم تكن هذه الهجرة مجرد انتقال ديموغرافي للاجئين، بل كانت تدفقاً لخبرات حرفية وهندسية استثنائية. استقر الأندلسيون في تونس وأسسوا حواضر نشطة، ونقلوا معهم أسرار صناعة القاشاني الملون (Maiolica)، وتقنيات النحت النباتي الدقيق للرخام والحجر، وأساليب بناء الأقواس المميزة (كعقد حدوة الفرس). هذا الرافد البشري أحدث ثورة في الفنون الزخرفية، وجعل من التقاليد الأندلسية والمغربية سمة بارزة في العمارة العثمانية المبكرة في كلا المدينتين.

2. **جزيرة مالطا وحكم فرسان القديس يوحنا:** على الضفة الأخرى المقابلة، وبعد طردهم من طرابلس عام 1551م على يد درغوت باشا، استقر فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطا. قام الفرسان بتأسيس العاصمة "فاليتا" واهتموا اهتماماً خاصاً بالأسوار والقلاع، لكنهم استعانوا أيضاً بمهندسين أوروبيين لتحسين وتزيين المدينة. ازدهرت مالطا معمارياً وشيدت القصور والكنايس على طراز عصر النهضة ثم طراز الباروك الفخم. ورغم القطيعة السياسية والعسكرية الظاهرية مع العثمانيين في شمال أفريقيا، استمرت التفاعلات الثقافية والتأثيرات الفنية بالانسياب في منطقة المتوسط، سواء عبر انتقال الحرفيين، أو توفر الخامات (كرخام مالطا)، وهو ما خلق لغة بصرية تتقاطع في كثير من تفاصيلها الإنشائية والزخرفية مع مباني طرابلس وتونس.

المبحث الثالث: استعراض النماذج المعمارية وتأصيلها في مناطق الدراسة

لإجراء مقارنة تحليلية دقيقة، تم تسليط الضوء على نماذج معمارية بارزة ووثائق حجرية تمثل الطراز المعماري والزخرفي لكل مدينة خلال فترة الدراسة:

أولاً: نماذج مدينة تونس العتيقة (الامتزاج الأندلسي العثماني)

شهدت تونس في العهد العثماني، وخاصة في فترة الدايات، نهضة عمرانية مميزة. برزت نماذج هامة عكست هذا التطور، ومنها:

1. **جامع يوسف داي (1615م - 1023هـ):** يعتبر من أجمل الجوامع التي جسدت النمط العثماني المبكر في تونس. يتميز بمدخل رئيسي فخم تُستخدم فيه العقود الحجرية المتتالية الألوان، وتيجان الأعمدة المورقة، مع زهرة هندسية وأخرى محورة تعلو المدخل. ويعد هذا الجامع نموذجاً لما يصفه المراجع بالنمط التركي الذي تجلى في المئذنة المثمنة الأضلاع.
2. **ضريح يوسف داي (تربة يوسف داي):** يتميز بمدخل تعلوه زخارف نباتية متشابكة وأشكال هندسية متداخلة، وقاعدة عقد مزخرفة بوريدتين متطابقتين تتوسطهما دائرة محدبة. وتبرز فيه التليبيسات الرخامية البيضاء والسوداء في انسجام تام.
3. **زاوية سيدي محرز:** تُظهر بوضوح تأثيرات العمارة الوافدة، حيث تعلو مداخلها زخارف نباتية منحوتة بطريقة محورة بخطوط ملتوية تنتهي بوريدتين متناظرتين.
4. **جامع حمودة باشا:** شيد سنة 1655م، ويعد من الجوامع التي استلهمت نمط جامع يوسف داي، حيث يتميز بمدخل ذي تليبيسات رخامية وزخارف زهرية محورة تتفرع منها أوراق وأغصان.

ثانياً: نماذج جزيرة مالطا (التأثير الكلاسيكي والباروكي)

عكست عمارة مالطا قوة فرسان القديس يوحنا وثرأهم، وبدفع من المهندسين الإيطاليين والأوروبيين، برزت نماذج فخمة منها:

1. كنيسة سان بول بمدينة "امدينا" (1697-1702م): صممها المهندس لورنزو وكافا كيث على الطراز الباروكي. يتميز مدخلها الرئيسي بنحت نصفي يعتمد التناقض بين الغائر والبارز. يحد الباب عمودان غائران ويعتليه زخرفة نباتية بارزة، وتيجان كورنثية ضخمة، مع واجهة تحتوي على دعامتين ذات قطاع مربع وملصقة بالجدران.
2. كنيسة القديس جورج بجزيرة غوزو (1670م): تُعد شاهداً على الفن الباروكي المالطي بامتياز. واجهتها مقسمة بأعمدة يتوسطها باب يعتليه شعار للمعلم الكبير، وتيجان كورنثية تفصيلية في مستوى أول، مع تماثيل ومنحوتات آدمية مجسمة يعتليها تاج ركيعة حجرية.
3. قصر العدالة (كاسا دي سيتا): صمم على النماذج الفرنسية والباروكية. تتميز واجهة المدخل بشخصيات نُحتت بشكل جميل ومجسم لتُعبّر عن الرحمة والعدل، مع أقواس بيضاوية الشكل والأروقة ذات الأعمدة التيجانية التي تميزت بالتأثير الغني للنحت والهندسة.

ثالثاً: نماذج مدينة طرابلس القديمة (الهجانة الإيجابية والتجريد)

مزجت طرابلس بين التراث المحلي والمغربي والتأثير العثماني لإنتاج طابع خاص:

1. جامع الدروج (مسجد الشيخ مساهل): واجهته تزخر بعقود حدوة الفرس والتطعيم ببلاطات الفاشاني متعددة الألوان التي تكسو العقد، مع استخدام النحت النباتي المحور.
2. جامع محمد باشا (شايب العين - 1699م): يمثل الذروة في استخدام الوريدات المنحوتة وتيجان الأعمدة التي تأثرت بشكل واضح بطراز الباروك والركوكو الأوروبي من خلال الانحناءات المبالغ فيها لأوراق الأكانتس.
3. العمارة المدنية (دار القاضي / حوش الباشوات): اعتمدت على البساطة الهندسية، حيث برز عقد حدوة الفرس المزين بوريدات منحوتة بأعلى العقد، مع تجنب الزخارف النحتية المبالغ فيها على الأبواب الخشبية.

المبحث الرابع: المقارنة التحليلية للمفردات الزخرفية (نقاط التلاقي والتباين)

أفرز التحليل الوصفي والمقارن للنماذج المعمارية السابقة مجموعة من الاستنتاجات الفنية الدقيقة التي توضح مدى التشابه والاختلاف بين المدن الثلاث:

1. وحدة العناصر الزهرية (الوريدة / Rosette): النتيجة الأكثر بروزاً هي سيادة عنصر "الوريدة" (Rosette) في حواضر الدراسة الثلاث. هذا العنصر الزخرفي الذي يتكون من زهرة هندسية ذات بتلات متناظرة (أربع أو خمس أو ست بتلات) تواجد بكثافة لا يمكن تجاهلها. في طرابلس وتونس، نُفذت الوريدات في مراكز الأقواس وفي كوشات العقود بالنحت الغائر والبارز البسيط لتعبر عن التجريد الفني الإسلامي. وفي مالطا، ظهرت الوريدات والميداليات (Medallion) كعنصر تزييني مساند ضمن تكوينات نحتية أكثر تعقيداً على واجهات الكنائس. إن هذا التكرار يؤكد وجود ذائقة بصرية مشتركة ولغة زخرفية موحدة بين ضفتي المتوسط تنتقل عبر الحرفيين والتبادل التجاري.
2. الأشرطة الزخرفية والعناصر النباتية الكلاسيكية (:Acanthus): اشتركت المدن الثلاث في استخدام الأشرطة الإطارية (Frieze) التي تتشكل من خطوط هندسية متداخلة أو فروع نباتية ملتوية لتحديد مداخل المباني وتأطيرها. كما كان لحضور "ورقة الأكانتس" (Acanthus) أو ما يعرف بورقة شوكة اليهود حضور قوي جداً في زخرفة تيجان الأعمدة. ظهرت هذه الأوراق في التيجان الكورنثية التي حفت بالمداخل في المساجد التونسية والطرابلسية (مثل جامع شايب العين)، وتجلت بتجسيم

أكبر في كنائس وقصور مالطا. هذا الحضور المتزامن يثبت أن الجذور الكلاسيكية (الرومانية والبيزنطية) في حوض المتوسط لا تزال حية، وتمت إعادة تدويرها وصياغتها بما يتناسب مع كل طراز ديني وحضاري.

3. التكوين الكتلي والفلسفة الدينية في النحت: هنا يكمن الاختلاف الجوهرى والأعمق. في تونس وطرابلس، والتزاماً بالفلسفة الإسلامية التي تميل للتجريد وتبتعد عن التجسيد المباشر للكائنات الحية، اعتمد المعمار المسلم على زخرفة الأسطح (Flattened Relief) والزخارف النباتية والهندسية المتكررة (الأرابيسك)، واستخدام القاشاني لخلق الثراء اللوني والتناغم. في المقابل، في جزيرة مالطا، وبدفع من الكنيسة الكاثوليكية وفن الباروك، جنح المعمارىون والنحاتون إلى النحت المجسم عالي البروز (High Relief). امتلأت المداخل المالطية بالتماثيل الآدمية النصفية والمجسمة (شخصيات تعبر عن الرحمة والعدل، قديسين)، والشعارات النبالية والدروع الضخمة (الجامات البيضاء)، مما خلق واجهات ذات دراما بصرية تعتمد على كثافة الظل والنور والتجسيم الإنساني، وهو ما يغيب تماماً عن واجهات طرابلس وتونس التجريدية.

4. العقود وأنواعها (Arches): تنوعت العقود كعنصر إنشائي وزخرفي أساسي. فبينما سيطر "عقد حدوة الفرس" (Horse shoe arch) والعقد المدبب (Pointed arch) وعقد المقرنصات على مداخل طرابلس وتونس كسمة مغربية وإسلامية أصيلة، مالت مالطا إلى استخدام العقود النصف دائرية (Semi circular arch) المستمدة من العمارة الكلاسيكية، والعقود البيضاوية المنبضحة التي ميزت عصر الباروك.

الخاتمة والنتائج العامة

أثبتت هذه الدراسة المقارنة والتحليلية أن المسطحات المائية في حوض البحر الأبيض المتوسط كانت بمثابة جسور لانتقال الأفكار والنظريات المعمارية وليست حواجز تفصل بين الثقافات. ويمكن تلخيص أبرز النتائج العلمية التي توصل إليها البحث في النقاط الآتية:

- 1. روابط حضارية متينة:** هنالك روابط تاريخية وفنية عميقة ومتبادلة بين طرابلس وتونس ومالطا، انعكست بصدق ووضوح في المجال الزخرفي والنحتي للمداخل والواجهات، مما يؤكد الفرضية القائلة بوجود تأثيرات متبادلة مع مناطق الجوار الإقليمي.
- 2. لغة بصرية مشتركة:** رغم تباين العقائد الدينية (إسلامية في طرابلس وتونس مقابل كاثوليكية في مالطا) واختلاف اللغات المحكية، استمرت لغة معمارية وزخرفية مشتركة. تجلت هذه اللغة بقوة في الاستخدام المكثف لعنصر "الوريدات" (Rosettes)، والزخارف الهندسية، والأشرطة النباتية الملتوية، والتيجان المورقة (الكورنثية) المعتمدة على ورقة الأكانتس.
- 3. خصوصية الهوية المحلية والعقائدية:** حافظت كل منطقة جغرافية على هويتها العقائدية الخاصة وصبغتها المحلية؛ فبينما نجحت طرابلس وتونس في تطويع الحجر لإنتاج زخارف إسلامية تجريدية تتسم بالبساطة والروحانية الدقيقة، وظفت مالطا الحجر لإنتاج تشكيلات باروكية ضخمة تضج بالتفاصيل الآدمية والمجسمات النافرة والشعارات العسكرية والنبالية.
- 4. طرابلس كبؤرة التقاء حضاري:** شكلت مدينة طرابلس بموقعها المركزي نقطة التقاء وانصهار مثالية. فقد استوعبت التأثيرات الدقيقة القادمة من تونس (والتي نهلت بدورها من خبرات المهجرين الأندلسيين)، ووازنتها مع المؤثرات الباروكية والتقنيات الحجرية القادمة من جزيرة مالطا وأوروبا الجنوبية (كما ظهر جلياً في جامع شايب العين). وأعادت طرابلس صياغة كل ذلك بأيدي حرفيين مهرة، لينتجوا وثيقة حجرية تاريخية تشهد على حقبة ذهبية من التبادل الثقافي والتسامح الفني في حوض البحر الأبيض المتوسط.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن أبي دينار، أبو عبد الله، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد الشام، المكتبة العتيقة، ط1، تونس، 1961م.
2. الطويل، أحمد، تاريخ مدينة تونس الثقافية والحضاري من الفتح إلى أواخر القرن التاسع، المكتب التجاري، 1963م.
3. بن مامي، الباجي، "جامع يوسف داي أول المعالم العثمانية بالبلاد التونسية"، مجلة أفريقية، عدد 16، تونس، 1998م.
4. خوجة، حسين، نيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1976م.
5. التليسي، خليفة محمد، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، دار العربية للكتاب.
6. محمد، سعاد ماهر، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.
7. الزاوي، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1988م.
8. التميمي، عبد الجليل، العمارة السكنية النقائش الجنائزية وآليات الترميم، تونس، 1983م.
9. الطايش، علي أحمد، الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة في العصرين الأموي والعباسي، زهراء الشرق، القاهرة، 2000م.
10. البلوش، علي مسعود، تطور الأسلوب الزخرفي في معمار المسجد في ليبيا، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 1989م.
11. البلوش، علي مسعود، وآخرون، موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، مصلحة الآثار، طرابلس.
12. الشريف، محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار سراس للنشر، 1993م.
13. ميسانا، غاسبري، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق، مراجعة مصطفى العجيلي، دار النشر، 1972م.
14. قاجة، جمعة أحمد، موسوعة فن العمارة الإسلامية، منشورات المنشأة العامة للنشر، طرابلس، 1978م.
15. زميت، مارتين، "التاريخ العرب ولغتهم في مالطا"، مجلة البحوث التاريخية، العدد 1، سنة 200 ص.
16. بلوي، بريان، قصة مالطا، ترجمة مصطفى محمد جودة، ط1، مكتبة الفرجاني، بيروت لبنان، 1969م.